الأسس الاعتقادية للزاوية البوعمرية بمراكش من خلال كتاب شمس المعرفة في سيرة غوث المتصوفة لقاسم الحلفاوي

الدكتورة هجر شفيق
أستاذة السلك الثانوي التأهيلي، سلا
المغرب

المقدمة:

من المعلوم أن معظم الزوايا بالمغرب، كانت تسير على نهج السلوك الصوفي المعتدل، القائم على الكتاب والسنة، أو التصوف السني الذي يعني العناية بالجانب الأخلاقي في عبادة المؤمن، القائمة على الإخلاص في أدائها لتأثيرها المباشر في استقامة العبد، ولذلك اهتم صوفية المغرب بالجانب الفقهي، والعبادة الظاهرة أولا، ثم التصوف الذي يعنى بحقائق الأحوال ودقائق الأفعال ثانيا، ومع ذلك فقد كان لبعض هذه الزوايا استغراق وخوض عظيم في مقامات الولاية والخلافة والقطبانية والغوثية ومكاشفة الغيب والتصريف، ومم ينخرط في هذا السلك نجد الزاوية البوعمرية بمراكش لمؤسسها الشيخ أبو عمرو القسطلي المتوفى سنة 974هـ، وقد كانت لهذه الزاوية أدوارا ريادية في التربية الدينية والسلوك الصوفي بتلاوة القرآن الكريم وقراءة الأوراد ومدارسة الكتب الدينية والصوفية، وإطعام الطعام زمن الأوبئة والمجاعات بسبب غناها واتساع أملاكها، أما سياسيا فقد عرفت الزاوية بمساندتها للدولة السعدية ضدا على الدولة الوطاسية في القرن 10هـ/ 16م[1]، و كانت لهذه العائلة القسطلية دعوى عريضة في مقام القطبية والغوثية والولاية، واختلف الناس فيهم بين مؤيد ومعارض، ألف في هذا الشيخ أبو عمرو، أبو الفقيرة كتابا في مناقبه أسماه: "شمس القلوب لكل محبوب"، وفي ولده وخليفته الشيخ محمد الكامل ألف أبو القاسم الحلفاوي كتابا في مناقبه سماه: "شمس المعرفة في سيرة غوث المتصوفة"[2]، وقد كان ولده محمد الكامل يدعي أنه وارث الولاية عن أبيه، وكان يقر في مجالسه أنه وارث النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس في زمانه حيث عم الفساد وكثر أهله، فقال: "سقيت بلا وسقاني المولى وأنا والله وارث الرسلا"، فما هي الأسس الاعتقادية للزاوية البوعمرية من خلال كتاب شمس المعرفة؟ وما هي معانيها الصوفية الدائرة حولها؟ وما هي آداب الطريق، وشروط الصحبة عند البوعمريين؟

كان للناس في شأن اعتقاد شيوخ البوعمرية اضطراب; بسبب دعوتهم في مقام القطبانية وأن الشيخ أبا عمرو صاحب الوقت كما تقدم، فمن قائل إنه على بصيرة من ربه، ومن قائل خلاف ذلك؛ فمن أهل الصنف الأول: أبو عبد الله الزروالي[3] وكان ممن رحل إلى الحجاز وجاور بمكة، وكان يزعم أنه رأى الشيخ أبا عمر في الطواف مرارا، ولقيه مشافهة هناك، ولم يكن أبو عمرو قد سافر إلى الحجاز ولا إلى غيره، وكان الزروالي يذكر ذلك في حضرته، فلا ينكر عليه تلك الدعوى[4] .

يقول صاحب الإعلام عن الشيخ أبي عمرو: "حامل راية عصره ورئيس حداة ركبه، غوث الأغواث وشمس الكون بعد ظلامه القطب الأشهر[5] ."

عظيمُ الحال، باهرُ الخوارق كثير الكرامات، بحيث عزّت عن الحصر وملأت الوجود، كثير المكاشف، كثيرا ما يخبر عن الشيء قبل أن يكون، فكان إذا التقى بأحد من الأمراء وأرباب الأموال يقول له: اشتر مني، مدينة أو نحوها، فإن فعل، قال له: كنت في أمان، وإن لم يفعل قال له: أنت معزول أو مقتول، فيكون ذلك بقدرة الله.

وكانت له الإغاثة في البر والبحر والخطوة،[6] وكان يقف بعرفة، ويجري في كلامه الأخبار عن اللوح المحفوظ ورؤية ما فيه، فياض المدد قوي الحال عريض في مقامات الأولياء، فكان يدعي أنه الغوث وأنه صاحب الوقت، وله في معنى ذلك قصيدته التائية:

وَمِن مَعْدِنِ التَّحْقِيقِ كَـــانَ نَصِيبُنَا ... وَجُمْلَةُ أَنْـــــــوَاعِ اليَقِينِ فِي قَبْـــضَتِي

وَكُلُّ بُحُورِ العِـــــلْـــمِ طُـرًّا وَرِثْتُهَا ... وَأَنْـــــــوَاعُ أَحْكَامِ الطَّرِيقَةِ حِـــرفَتِي

وَأَقْطَابُ أَهْلِ الأَرْضِ مَـادَّتُهُمْ مِنَّا ... وَالأَجْرَاسُ والأوتـــــادُ تَـحْتَ إِمَارَتِي

والأَبْدالُ والأوتَادُ مِنْ حَـوْلِ بَابِنَا ... بَذْلٌ وفَقـــــدٌ واحـــــتِقَارٌ وفَاقَةٌ

فَكُلُّ رِجَالِ اللهِ نَـالُـــوا بِـــعِزِّنَـا ... وأَظْفَـرتُنَا بِأَعْـــــلَى كُـــلِّ وِلاَيَةٍ

أَقَرُّوا بِأَنِي وَحِـــيدُ زَمَـــــانِنَـا ... وَقُدْوَةُ كُلِّـهِمْ وَهُـــــــمْ لِي فِتْيَتِي

وَلَوْ بَانَ بَعْضُ مَا شَـهِدْتُ مِنْ عَجَائِبِ ... لِأَقطَـابِ وَقْتِنا لَـــــذَاقـوا المَنِيَّةَ

وَشَاهَدْتُ غَيْـــبَ الغَـــيْبِ عَيْناً ... وَأَبصَـــرتُ أَنـوارَ الجَـــمالِ بنَظرَةِ

وَأَبْصَرتُ مَا يَأْتِي وَمَا كَـــانَ قَبْلَنَا ... بِنُـــــورِ جَـــلاَلِ اللهِ نَارَتْ بَـــصِيرَتِي

وَعَينِي عَيْنُهُ وَأَمْـــرِي بِـــأَمْرِهِ ... وَسَـــــرى سِتْـــــرُ خَيرِ كُلِّ البَرِيَّةِ [7]

الغوثية والقطبانية والولاية وأصل الدائرة:

القطب: القطب لغة يحمل معاني الجمع، ومنه قولهم: قطب الرحى لأنه يجمع أمرها إذا كان دوره عليها، ومنه قطب السماء ويقال أنه نجم يدور عليه الفلك، ويستعار هذا فيقال: فلان قطب بني فلان، أي سيدهم الذي يلوذون به[8] .

وعند الصوفية: القطب واحد في الزمان الواحد، الذي هو موضع نظر الله تعالى، من العالم في كل زمان، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام،[9] وفي كشاف الفنون: هو على قلب محمد صلى الله عليه وسلم،[10] يتعدد على مر الأزمنة، يتلقى مرتبة القطبية من القطب الذي ينتقل بالموت إلى العالم الآخر وهو ليس برسول بل من الأولياء عامة والأفراد خاصة، ويترادف مع مصطلحات أخرى من قبيل: الغوث وصاحب الوقت والخليفة وواحد الزمان والحجاب الأعلى ومرآة الزمان[11] .

ويعتقد في القطب كما جاء في شمس المعرفة، الإحاطة بجميع العلوم، حتى إنه لو اندرست المذاهب الأربع لأقامها من عنده، ولا يكون جاهلا فما اتخذ الله وليا جاهلا، وقد يكون أميا فإذا كان كذلك علمه الله، وعلوم الولي لا تحيط بها العقول، ولا يُعترض عليهم بمعقول أو منقول، وجعله عالما يملك علما نافعا، وعموم النفع به أقوى من غيره من العلماء.

أما الغوث فهو من المصطلحات التي رادفتها الدكتورة سعاد الحكيم ب مصطلح "القطب" وقد يدل بهذا المعنى تركيب: غوث الأغواث على الحقيقة المحمدية لأن عليه مدار كل حقائق الأقطاب من حيث أنه مصدر كل شيء ومنبع كل علم، وذلك على غرار شرحها لـ"قطب الأقطاب"، وعند القاشاني: الغوث هو القطب حين يُلتجأ إليه، أو يستغاث به، ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا[12] .

والغوث عنده في شمس المعرفة أقوى من العالِم، وقد أسندها لشيخه محمد الكامل الذي كان يستغاث به ويطلب منه الأمان من خوف، كما حكى عن غير ما مريد ظل طريقه في أرض مليئة باللصوص أو لقيهم فعلا، فاستغاث بالشيخ ونجا من مهلكته .

يقول في كشاف الفنون: اعلم أن رجال الله هم أقطاب... ومنهم الغوث والإمامان والأوتاد والأبدال والأخيار والأبرار والنقباء والنجباء، ويسمى أيضا: قطب الأقطاب والقطب الأكبر، ومعنى قولهم فلان على قلب فلان، أنه وارث لخصوصية ذلك النبي وماله من علوم وتجليات ومقامات وأحوال، بواسطة المدد[13] .

وأما الولي عنده في شمس المعرفة فهو المشبه بالنبي، تبعا للحديث الشريف الذي يجعل الله سمعه وبصره وكلامه وفقا لمراد الله فيصبح مكونا ومشكلا وفق هذه الإرادة، فينوب عنه في إحقاق الحق، لذلك قال راويا عن شيخه: "شرب الأولياء من مدينة النبوءة وشربت أنا وشممت رائحتها"، وقال أيضا: "لو بقي نبي يبعث كنتُه."

ومن الحدود الموضوعة في بيان الولي: هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين.[14]

وأما الخاتم في اصطلاح الصوفية فشخص اجتاز المقامات ووصل لنهاية الكمال[15]، والدائرة هي التي تجمع هؤلاء الأولياء بجميع أصنافهم وأعدادهم، إلا أنها قد تحمل معاني أخرى عند الصوفية ففي معجم الحفني، الدائرة: صورة الكثيب الذي يجتمع الناس عليه لرؤية الحق وهو في جنة عدن[16] .

ونخلص بعد هذا النظر إلى أن مقام القطبية أنواع ومقامات ويكون تصريف كل ولي حسب منزلته من دائرة الأقطاب; ومعنى ذلك أن يحظى كل مخصوص بمقام بحسب ترقيه فيه ومكانه منه، فهو إما من الأولياء أو النجباء أو الأوتاد أو النقباء أو العرفاء أو المختارون أو الأقطاب والأغواث، ومع ذلك فالمؤلف يكاد يشكل مفهوما خاصا للغوثية والقطبانية، فهو يرى أن الأغواث على الرغم من اتفاقهم في مبدإ الخصوصية والولاية فأوصافهم قد تتغاير، ولكنه يرادف القطب والغوث والخليفة والولي والشيخ ويوردها بمعنى واحد. وهي كلها صفات أسندها المؤلف لشيخه حتى قال عنه: "وحامل راية عصرنا ورئيس حداة ركبنا، ولي الله العظيم، غوث الأغواث الكرام وخاتمة دائرة السلام."

الخلافة والخصوصية الكبرى

الخليفة: القطب القائم بوراثة النبوة بلغة الخواص، فالخليفة هو من الأولياء أفرد عنهم لمرتبة القطبية، صاحب الوقت، الذي يتعدد بتعدد الأزمان[17] .

قال ابن عجيبة: "أهل الخصوصية، آدابهم: حفظ القلوب ومراعاة الأسرار واستواء السر والعلانية، وقال: الخصوص وأهل الخصوص هم الذين خصهم الله تعالى من عامة المؤمنين بالحقائق والأحوال والمقامات".[18] وقد استدل المؤلف على وجودها من الأثر ويعتبر بدايتها الفعلية مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاصة أبا بكر الصديق والخلفاء الراشدين.

المكاشفة أو الكشف

بيان ما يستتر على الفهم فيُكشف للعبد كأنه رأي العين،[19] وهي في الولايات: انكشاف الحجب بصفاء صفات السالك فيها[20] .

يقول الحلفاوي عن شيخه: "وأما مقامه من معرفة النفس وخدائعها ومناقضتها ومجاهدتها بالعقل فالعقل عاجز عن وصفه..."، ويقول: "فأما فوق طور الرؤية ودون طور النبوءة، فهو ما خص الله به أولياءه المقربين من المكاشفة ببعض الغيوب على حسب اصطفائه لهم وهباته وخلعه عليهم."

الشيخ والمريد وتقبيل اليد

أفاض المؤلف في الحديث عن أهمية اتخاذ الشيخ المربي الذي يدل على الأصلح على الرغم من أنه يستثني من الناس من قد "يجذبه الله"، فلا يحتاج إلى أستاذ، سالكا موقف الإمام أبي الحسن الشاذلي في هذا النظر، وذلك على

سبيل التقليل والندور وإلا فوجود الشيخ في الطريق لابد منه، وقال: "لا يكمل الطريق إلا بوجود الاستقامة، والاستقامة لا يتم أمرها إلا بشيخ ناصح أو أخ صالح يدل القاصد على الأصلح."

وكان شيخه محمد الكامل يحث على التمسك بالشيخ حتى قال: "كلما شهده المريد ثوبا على الشيخ خلعه عليه، فإن خلع عليه الأعلى ونظره في الذي بعده كذلك، حتى تتخذ الصفات بالصفات والأحوال بالأحوال والأسرار بالأسرار."

ولا يرجع للكتب إلا بعد فقد الشيخ المربي وتعذر وجوده، يقول: "فإذا عدم ماء الشيخ المربي الذي من شرب منه شربة حصل على كنزها، فإنه يجوز أن تطلب مراسمهم في كتبهم."

ويعد الحلفاوي عدم الالتفات إلى دعوى العلماء والشيوخ والمربين ضربا من ضروب فساد العقيدة وإن كانوا مؤمنين مصدقين بالأنبياء، فحالهم لم يتغير على حال القرون التي أهلكها الله بعد تكذيبها للرسل، بعد أن حملهم الكبر والجحود على متابعة الولي، ويعتبر المنكر عليهم ذا ذنب عظيم.

ويصنف محمد الكامل المشايخ إلى ثلاث: "شيخ التحقيق وشيخ التمليق وشيخ التلحيق، أما شيخ التحقيق: الذي يحققك بالكتاب والسنة، وأما شيخ التمليق: الذي يملق أحوالك، وأما شيخ التلحيق الذي يقول لك: ها أنت وربك."

وأنكر بعض الناس على الشيخ أبي عمرو تقبيل اليد فقال له: أنت رأيتهم يقبلون يدي فالله يقطعها مئة قطعة بالنار، فإنهم ليسوا يدي يقبلون إنما يقبلون فضل الله[21] .

الكرامة الصوفية والتصريف

المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء، وهو جائز لأنه أمر موهوم في العقل لا يؤدي حدوثه إلى رفع أصل من الأصول، وهم مأمورون بإخفائها، وليست الكرامات لهم إلا تأديبا لنفوسهم وتهذيبا لها.

وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز، ولابد أن تكون هذه الكرامة فعلا ناقضا للعادة، ظاهرا على موصوف بالولاية، وبالجملة: فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب وعليه جمهور أهل المعرفة، ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بظهورها علما قويا[22] .

يقول في شمس المعرفة: "الأنبياء مؤيدون بالمعجزات والعلماء مؤيدون بما يدل على صدقهم بالكرامات."

ثم هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة، أو إظهار طعام في أوان فاقة، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف[23] ...

ومع ذلك فإن الكرامة ليست من شروط الولاية[24] وهذا ما أكد عليه الحلفاوي أيضا وهو يفرق بين الولاية المطلقة التي لا يشترط فيها الكرامة، والولاية الخاصة التي وجب على من ادعاها أن يؤيدها بما يثبت صدقه، وتَرى الدكتورة سعاد الحكيم أن الكرامة نشأت وترعرعت في أوساط العامة، وهي في أغلب الأحيان من المرويات التي تتناقلها مجالس المريدين، ويرجع سبب نشأتها أن الولي يكتم الكرامة فتتناقل بعيدا عنه محملة بالكثير من الأساطير والخرافات، مما يجعل هذه الطائفة مجالا للنقد، وتضيف: أن الكرامة ليست مشروطة بالولي، فهي ثمرة العبادة[25] .

ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرف[26]، والمقصود بالتصريف ظهور الكرامات الجسام والخوارق العظام التي بها يتصرف العارف بالله، بما يحقق منهجه في التربية والدعوة إلى الله تعالى،[27] يقول الحلفاوي: "والولي مؤيد بالكرامة الدالة على صدقه في دعواه والاستقامة في الحال أو المقال أو بهما معا"، ومن صنوف الكرامات التي أورد: إلقاء محبة الشيخ في قلوب العباد، والإقبال على موعظته وقبولها حتى ولو كان الكلام لغيره، واستقامة أتباعه، ونورانية وجهه، ووضع البركة له في الطعام، وطي الأرض له، والمشي على الماء واتضاح مكاشفته.

وطالِب الكرامة أو الدليل على صدق الولي أصناف، رتبهم الحلفاوي في شمس المعرفة:

فهم إما مريد أو مسترشد أو جاحد، فالمريد من لا يكون في حاجة إلى دليل ويكون مخصوصا بالتصديق والتسليم، والمسترشد منصف ومُسلِّم بعد أدنى دليل، وهو صاحب أدب ويسمع ولو من صغير الأقوام، والجاحد من لا يكفيه الدليل، وطالب الدليل ليس من الضعفاء كما شاع على ألسنة الفقهاء، ولكنه يطلب الاطمئنان، ثم أن عدم ظهور الكرامة أحيانا يكون رحمة بالناس، إذ عادة الله في خلقه أن من كفر بعد طلب الدليل ومشاهدته الهلاك.

وقد أفرد المؤلف لموضوع الكرامات في هذا الكتاب، بابا خاصا سماه: "في ذكر كراماته الظاهرة وخصائصه الباهرة ومحاسنه الزاهرة"، وأكد أنه اقتصر على مائة كرامة، طلبا للاختصار الذي أنشده منذ بداية التأليف إلى غاية الانتهاء منه، وزاد الكرامة الإحدى ومائة، وإلا فكرامات شيخه أكثر من أن يحصرها عدد، وكثير منها مما يندرج ضمن الرؤى المنامية كتسمية المؤلفات والقصائد التي ألف الحلفاوي والتي تكون عناوينها مقترحة من أصحابه ومريدي الزاوية بعدما رئيت في مناماتهم، كما هو شأن "شمس المعرفة" وقصيدته في مدح الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أو تلقيه أشعارا من شيخه فينتبه من نومه وقد حفظها ووعاها.

ومنها ما جرى اتصاله المباشر بأحوال المؤلف وحياته ومع أهل بيته وأسرته مما يذكر المؤلف نفسه رؤيتها عيانا كشكوى وليده من كثرة بكائه وقلة نومه وشفائه ببركة شيخه في رؤية منامية أيضا، ومنها: إكثار الطعام ببركته بعد أن تظهر قلته ومشارفته على الانتهاء، ومنها عصمته ممن أراد به شرا أو أراد قتله في زمن الخليفة أحمد المنصور الذهبي[28]، ومنها مكاشفته بأمور لم يُعلَم بها، بما في خاطر الناس كما رُوي عنه، وكما روى المؤلف نفسُه، الذي كان في بداية الطريق مترددا فيه، مستبعدا امتلاك الشيخ محمد الكامل للولاية إلا ما يسمعه من ألسن العامة، متحدثا بكل ذلك في نفسه، إلى أن أخبره شيخه يوما أنه لن يعرف الله بطريق البرهان والاستدلال إن لم يعرِّفه الله به.

ومنها شفاء المرضى من عللهم وأسقامهم على يديه وببركته، ومنها تحقق نظره وسداد رأيه بما يشير على مريديه، ومنها إغاثة المستغيثين به مما يحيط بهم من الأهوال والمصائب بعدما تيقنوا الهلاك والموت فيغيثهم وينجون ويطلبون الأمان منه فيؤمنهم، ومنها تحقق ما يخبر بوقوعه قبل أوانه ووقته، ومنها التماس مريديه وقوع بعض ما يرجونه ويطلبونه ببركته فيتحقق لهم، ومنها اهتداء الناس وخلق كثير على يديه، ومنها هلاك من يتعرض له بالإذاية.

الرؤية المنامية

استأثر موضوع الرؤية المنامية بصفحات مهمة من مجموع الكتاب، سواء تلك التي جلبها عرضا، أو عقد لها فصلا مستقلا، سماه: "في أصل الرؤية وحقيقتها وأقسامها"، واعتبرها أصلا من الأصول التي ينبني عليها تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، واستدل على ذلك بأدلة شرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأقوال الأئمة العلماء والمفسرين في هذا الشأن، وخاض في أصناف الرائين على حسب مقاماتهم وأحوالهم، وعدها أول درجات الولاية، وكان سبب تسمية الكتاب رؤية أيضا رآها بعض أصحابه، وكان رجوع شيخه "محمد الكامل" إلى مذهب أهل الباطن وتركه علوم الظاهر والانشغال بها، رؤية منامية رآى فيها الشيخ أنه يتبع الفقيه الحسن بن سعيد الشريف الحسني[29] في طريق يضيق شيئا فشيئا، واستمرا في السير فيها رغم وعورتها، حتى لقي خاله عبد الرحمن بن محمد القسطال وهو يثنيه عن المضي فيها ويدعوه لترك طريق أهل الدليل والبرهان و تتبع مسلك أهل التصوف الذين لا حاجة لهم فيه، فكانت طريقها في الرؤية واسعة بيضاء وترابها مثل الفضة ما رأى أحسن منها وهي طريق أبيه.[30] وهذا ما يفسر شدة الاعتقاد في الرؤية، وتجاوز مجرد "الرؤيا" إلى إعمالها وتطبيق فحواها في اليقظة، كما روى أنه رأى شيخه بعد وفاته وهو يشكو له سوء الحال وتغير الزمان بأهله، وأدرج تلك التي رواها المريدون سواء من الأسرة البوعمرية أو غيرهم، كرؤية أحمد القسطلي الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوثا في مسجد علي بن يوسف اللمتوني[31]، أو تلك التي رئيت للشيخ محمد الكامل من قبل ابن أخيه محمد الكبير والتي تثبت خصوصيته، وتلك التي روى محمد بن عبد الرحمن المراكشي ومحمد بن مسعود المراكشي وأبو القاسم بن عبد الجبار العامري،[32] أو التي روى عن والدته والتي كانت مدعاة لترسيخ تعلقه بالشيخ ودعوته أمه إلى ذلك واتصالها بالشيخ محمد الكامل لمعرفة تأويلها.

يقول القشيري: والمعنى: أن تلك الرؤيا: رؤيا الصدق، وتأويلها حق، وأن الرؤيا نوع من أنواع الكرامات، وتحقيق الرؤيا خواطر ترد على القلب.[33] ورؤية أحد الشيوخ الموصوف بكونه من أهل العلم بالشريعة والحقيقة والطريقة، قد تحدث للمؤمن السالك، وعلة ذلك: قوة الرياضة الروحية وصفاء القلب حتى تصبح الروح قوية وتنكشف لها بعض الأنوار الروحانية، وأحيانا يخبرون عن أمور دنيوية مستقبلة وقد يطلعون على أحوال بعض الناس[34] .

المحبة:

المحبة من الأصول الكبرى التي ينبني عليها الاعتقاد الصوفي، وهي أصناف تأخذ معينها من المحبة الإلهية أو العشق الإلهي ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وأهل بيته، ومن تجلياتها: محبة الشيخ الموصل إليها جميعا ومحبة المريدين والإخوان في الطريق، ومحبة الشيخ طريق نيل القرب منه فالأخذ عنه، والمحبة في المؤلَّف "هي التي أحرقتنا" كما ردد الشيخ أبو عمرو، وقد وجد محمد الكامل من المحبة الفيض العظيم تجاه خاله عبد الرحمن القسطال حتى أفضى به الحديث عن "الاتحاد"، فحين تفترق أجسادهم تظل قلوبهم متعالقة متحدة، وبعده أحب رجلا يقال له: "أبو عبد الله"، بقي محترقا بنار محبتهما بعد وفاتهما.

وقال الشيخ محمد الكامل مم يندرج في مجال الحكم والمواعظ: "من أحبنا لدنياه فهو محجوب عنا، ومن أحبنا لذات ربنا نال الولاية من حينه على أيدينا."

وقال: "القريب إلينا من تقرب إلينا بقلبه وليس القريب إلينا من تقرب إلينا بمجرد جسده."

وقال: "من أحب وليا اتبع منهاجه ومن أحب نبيا اتبع سنته، وعلامة من يحبنا ثلاث: يأكل طعامنا ويصغي لكلامنا ويتبع أحسن كلامنا."

وقال: "من علامة الحب أن يستغفر لمحبوبه في خلواته، وأن يعتذر عنه عند زلاته وأن يعامله بما لديه."

وقال: "طعام القلوب لا يأكله إلا محب أو محبوب."

وقال مبينا أصناف المحبين: "محب ظمآن ومحب ريَّان ومحب سكران، فالمحب الظمآن: فواقف بالباب يرد الخطاب وينتظر الجواب، وأما المحب الريان فقلبه فرحان بمزيد الإحسان، وأما المحب السكران فهائم في حبه لا يشاهد سوى خالقه."

وعن محبة الرسول يقول: "حبك يا محمد. سكن مهجتي. أراك بالدوام فأنت قبلتي، ذاتي ذات الحبيب. صحت به خلتي، أنادي للحبيب: أجب دعوتي، بشرى يا ساداتي حبيبي في حضرتي، وكل ولي يطمع في انستي يرقى مرقى الأعلى لم يجد غربتي، فالحبيب أبو عمرو صحت له وصلتي، فلواء فخري يصدق قولتي يراه من صدق ويشهد وقفتي في قرب محمد."

وقال: "يا ساداتي اذكروا حبيبي محمد الحبيب قد سكن لبي فهو إي والله وسيلة لربي، وجدت في ذكره شفاء وطبي، أبوح باسمه فينجلي كربي، بالصلاة عليه تغفر ذنوبي حقا وتحقيقا، صفا به مشربي فأنا أنادي بجميع أحبابي، إئتوا بجمعكم توبوا إلى ربي توبة نصوحا، توبة منيتي يواقف مولاه عقيل لبي."

وكان المؤلف يحب شيخه غاية المحبة، ويجمع كلامه ويتبرك بأقواله وأحاديثه، ويمدحه تقربا إليه وخدمة له وحبا له.

حلق شعر التائب

كان الشيخ أبو عمرو يحلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم، حتى أنكر عليه ذلك الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي حين قدم إلى مراكش[35] ، وقال: إنه بدعة، فقالوا له: إن الشيخ الجزولي كان يفعله، فقال لهم: لعله بإذن، والإذن له لا يعمكم، فإن الإذن للنبي يعم أتباعه، والإذن للولي لا يعم أتباعه، وبعث له رسالة أقذع له فيها، فبعث له الشيخ أبو عمرو رسالة رد بها عليه يبين فيها مبادئ الطريق لمن أراد، نقلها الزروالي في شمس القلوب والناصري في الاستقصا،[36] كما أجاب أبو المحلي الثائر الشهير عن هذه الرسالة ينتصر فيها لشيخه القسطلي[37] .

آداب الطريق وشروطه والرد على المخالفين وأنواع المنتسبين

كان المؤلف يدافع باستماتة عن مذهب الطائفة الصوفية عموما والطريقة البوعمرية خصوصا، ويحاجج المخالفين، وغايته: "استخراج درر معاني كلام أولياء الله لئلا تبقى فيه حجة للمخالف أن يحتج بها على خاصة الله."

يقول في شمس المعرفة: "فإن قلت: هلا كان لكم في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به كفاية عن كل زائد، ففي التمسك بها جميع السعادة والفوائد، ولأي شيء مطاولون أعناقكم لخرق العوائد، فما هذه الأوراد وما هذه الجموع عليها، هل لكم في ذلك من نص مساعد، فاعلم أرشدنا الله وإياك لطريق الحق الصواب أن كل ما سمعته من أفعال هذا السيد مع تباعته كل ذلك وارد عنه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضي الله عنهم أجمعين رويناه من أحاديث شتى."

وقد حدد شروط الطريق وآدابها، مشيرا إلى إلمام شيخه بهذا المطلب الملح فيه وجمعه لأصول الطريق وفروع التحقيق، فقال: طريق البوعمرية طريق الشاذلية، المبنية على إسقاط التدبير مع الحق وفروعها راجعة لاتباع السنة، بخلاف غيره من السادات، فإنهم بنوا طرقاتهم على مراجعة أصول عديدة، وهي طريقة الأسباب ولها شروط وآداب:

- مجانبة أهل العدوان
- أداء الفرائض الخمسة في الجماعة
- الإنفاق على الفقراء
- ملازمة أهل المعرفة

وحددها في موضع آخر محددا وسائل بلوغها:

-اتباع السنة وأحكام الأصول

-سلامة الصدر في جميع الأحوال

-سخاوة النفس في البدن والمال

-البعد عن الطبع بالعقال ومن أنفذ وسائله: الأذكار والأسماء والتعلق والتخلق بمعانيها.

آداب المريد

الأول: حفظ الحرمة مع الله ومع من له نسبة في جانب الله من نبي أو ولي أو عالم أو غيرهم حتى عوام المسلمين على مراتبهم.

الثاني: علو الهمة في أمر الدين والدنيا حتى لا يكون له تعلق بشيء من النقائص ظاهرا ولا باطنا، وما جرى عليه من ذلك بادر بالتوبة.

الثالث: حسن الخدمة بلزوم الاتباع وترك الهوى من الحول والقوة في كل أمر.

الرابع: نفوذ العزيمة بحيث لا تراخ في حل عزيمته ولا تراخ في محل تشمير ولا ركون لموقع تقصير.

الخامس: شكر النعمة; وأصله شهود المنة وهو مبني على خالص التوحيد وخالص الإيمان.

وقد قال الشيخ محمد الكامل ذاكرا صفات المريد: "الفقير يكون قانعا متورعا ومتواضعا وإلى ربه منقطعا، يترك لقمة الحرام ويجتنب الآثام ويقلل الكلام ويصحب الكرام."

شروط اتباع الشيخ:

-قصر المريد على شيخه، بحيث لا يتعداه إلى غيره.

-ألا تطمح عين المريد إلى غير شيخه بعد شروق أنواره عليه وصلوح أمره لربه.

-حصر المادة في الشيخ بحيث لا يرى كل خير زاد عليه في دينه ودنياه إلا منه.

-إفراد الشيخ بالكمال بحيث لا يرى فوقه وليا غيره، حيا كان أو ميتا، فهو مبالغة في حصر همة المريد وقطع نظره على ما يكدر عليه صفوه.

-احترام جنابه وتعزيزه وتوقيره، وفي معنى ذلك تعظيم أهله وأولاده وعترته.

-حمل كلما يبدو منهم مخالفا على وجه جميل ووجه حسن من التأويل لعل ذلك وجه لم يصل المريد إلى تأويله وفهمه.

-اعتقاد أن معصية ذوي الشيخ وأهله وقرابته إذا ثبتت ليست كمعصية غيرهم، وأن الله كساهم من بركة الشيخ ما لا يطمع فيه غيرهم وقوتهم في ذلك بقدر القرب منه.

-الذب عنه وعن طريقته بكل ما يملك وبالبدن والروح.

-التدامي على كل ما يسره ويؤيده من قول أو فعل.

-معاداة من عاداه ولو كان من الأهل والإخوان.

-إيثار أصحابه وتعظيم الأول بالأول منهم دينا وعلما وسنا.

-التصريح بمدحه بإظهار جميل وصفه.

-إكرام تباعته ومريديه بإطعامهم.

-عدم ادعاء أفضلية يتعدى بها شيخه لأنه بذلك محجوب علما وعملا.

-دوام الطلب والافتقار إليه، فعلى حسب عظمته في قلبك يكون سير المريد وسلوكه.

-جعله نصب العين في كل ما يرد ويصدر وفي كل الأوقات.

-طلب مادته في كل حكمة، وفي كل كلمة صدرت عنه ولو لغيره، وفي كل حركاته وسكناته، والتشبه به في كل أحواله وأفعاله

-اعتقاد أن كل ما يحتاجه المريد، بل جميع العالم هو موجود عنده ومحصور فيه.

آداب الصحبة والأخوة في الطريق:

يقول الحلفاوي: والواقع أن موقع الأخوة من الطريق موقع عظيم، وقد جمع الناس من آداب الصحبة ومن يصحب ومن لا يصحب ما لا تمكن الإحاطة به، وليس فوق الأخ الصالح إلا الشيخ الناصح، وإلى ذلك أشار الشيخ أبو عمرو حين قال: "أخ في الله حقا أفضل من أخ كنت معه في الحشى ملقى"، واعتبرها أصلا عظيما عند الصوفية، وجب على المريد طلبها دون تراخ وتهاون لما اشتملت عليه من الفوائد الكثيرة، كالاجتماع والتعاون على البر والتقوى، لأن محاسن الأخلاق تظهر في الاجتماع، ما لم يخوضوا في غيبة أو حب دنيا، فحينئذ يرفع النور وتقع الظلمة، ولا يزال أهل الصدق يجالسون الإخوان ويؤنسوهم ويتكلمون معهم حتى يتبدل القصد فإن خاضوا في كلام الدنيا قاموا سراعا مستغفرين لصلاة أو ذكر، وقل من سلم من ذلك وخلص من الكلام فيها.

قال الشيخ محمد الكامل: "من لم ترضه خلتنا، فليترك موالاتنا"، وقال: "الوصول إلى الله بثلاث: أكل الحلال وصحبة الرجال والتخلق بأخلاق سيد الأرسال" وقال: "ما رأيت في دنياكم أفضل نعمة من ثلاث: تلاوة القرآن وذكر ذي الجلال ومجالسة الإخوان"، وقال أيضا: "المريد يكون من شيخه مستمدا ومن أخيه مستفيدا وقلبه لربه منفردا"، وقال: "اصحب كثير الدين ولو عاداك واترك قليل الدين ولو والاك."

ومن شروط الصحبة وآدابها:

•صحبة من هو فوقه: وشرط المصحوب أن يفوقه في أوصاف المعرفة والكمال ولا يشترط فيه أن يكون كاملا في جميعها، بل بما يفوق فيه غيره، وشأن من كانت هذه صفاته أن ينهض صاحبه بحاله ويهذب أخلاقه ويرفع همته عن التعلق بغير الله، فمن صاحب من هو فوقه في الرتبة فأدبه ترك الاعتراض وحمل ما يبدو منه على وجه جميل وتلقي أحواله بالإيمان به .

•صحبة من هو في درجته: وأدبه معه التغاضي عن عيوبه وحمل ما يراه منه على وجه جميل من التأويل ما أمكنه، فإن لم يجد تأويلا عاد إلى نفسه بالتهمة.

•صحبة من هو دونه: وهنا وجب عليه تنبيهه عما فيه من نقصان في حاله.

ومن آداب الصاحب مع صاحبه:

- محبته ما أمكن، وإعلامه بمحبته له.
- تعظيمه بالتقديم ونحوه، وهو مما يزيد في هيبته وقبول نصحه وموعظته له.
- الإنصاف والإحسان له.
- خدمته.
- مواساته بالمال
- الاقتداء بأفضل أعماله والتفاخر بأحسن أحواله والذب عنه وعن عرضه والإعراض عن معارضته، إن كان فوقه في الرتبة.
- الاستفادة منه رحمة والشفقة عليه، إن كان دونه في الرتبة.
- إيثاره على نفسه.

وبين الحلفاوي بعد تسطير شروط وآداب الطريق أنه مليء بمن يدعي الانتساب إليه وما هم من أهله، واعتبرهم ثلاث طوائف، وحدد أماراتهم:

- الأولى: أهل الاعتراض والأهواء، وعلامتهم أنهم يتخلطون الرجال بالنساء.
- الثانية: المتشبهون بالروافض وهم الذين تشغلهم الحضرة عن أداء الفرائض.
- الثالثة: المشغوفون بحب الرياسة والكنوز، المنفقون أموال الناس فيما لا يجوز.

الخاتمة:

من خلال هذا الجرد للأسس الاعتقادية المرتبطة بالطريق الصوفي عند شيوخ الزاوية البوعمرية، يبدو اعتقادهم الراسخ في مقام الأولياء والقطبانية والغوثية، والشيخ أبو عمرو اعتبر نفسه قطب زمانه الذي تحصل به المنفعة لأهل الوقت جميعهم، بعلومه المنقولة والمعقولة، وإشاراته وحكمه ومواعظه، وهو الغوث الذي أغاث الناس من مهالكهم، وهو الولي الذي ناب عن النبي في إحقاق الحق، ثم اعتبر نفسه خاتم الأولياء الذي اجتاز المقامات ووصل لنهاية الكمال، فاستحق المكاشفة بمعرفة النفس وخدائعها، ونسب إليه الكرامات الكثيرة، واعتبر ابنه الشيخ محمد الكامل خليفته في ذلك، وأما فيما يخص مبادئ الطريق فلا تختلف عن الآداب والشروط المسطرة في كتب الصوفية، كالتشبث بالشيخ المربي ومحبته واحترامه وتعزيزه والذب عن طريقته، ثم اتخاذ الرفقة والأخوة الصالحة لأجل التعاون على البر والتقوى.

وقد حرص شيوخ البوعمرية ومريديهم مع ذلك بوصل كل مبادئ الطريق بالسنة والطريقة الشاذلية بالحرص على التوبة والإقلاع عن الذنب أولا، ثم أداء الواجبات الشرعية كالصلوات المفروضة والزكاة والإكثار من الصدقات، ثم التعلق بالأوراد والأذكار والتخلق بمعانيها.

الهوامش:

[1] ينظر كتاب: أضواء على الزاوية البوعمرية لحسن جلاب في هذا الصدد. (أضواء على الزاوية البوعمرية، مساهمة في دراسة تاريخ الزوايا بالمغرب لحسن جلاب، المطبعة والوراقة الوطنية، الطبعة: 1-مراكش.

[2] مخطوط يوجد منه نسخ بالمكتبة الوطنية تحت أرقام 1720 د و841 ج، ثم 764ج، ثم 2552 ك، وبمكتبة القرويين تحت رقم 849.

[3] أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الزروالي الشريف الحسني المعروف بـ "ابن الفقيرة" المتوفى بمكة المكرمة بعد الألف، ألف كتاب: "شمس القلوب لكل محبوب" في مناقب الشيخ أبو عمرو القسطلي، نحوي وأديب وصاحب المؤلفات في العشق وصاحب منازلات فقهية، توفي سنة 1045هـ.(ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع لمحمد المهدي الفاسي ، تحقيق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، من كتب التراث، ط:1، ص: 147) (الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم ، راجعه عبد الوهاب منصور مؤرخ المملكة، المطبعة الملكية، الرباط، م1974، ج:5، ص: 183).

[4] دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن عسكر الحسني الشفشاوني تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم (1). ص: 108.

[5] الإعلام، ج: 1، ص: 331.

[6] مم يعتبره الصوفية كرامة من كرامات الأولياء صفة طي الأرض لهم أو تواجدهم بأماكن مختلفة ربما لم يطؤوها يوما.

[7] الإعلام، ج:1، ص: 343/337.

[8] معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء الخامس، كتاب القاف، مادة قطب، ص:105.

[9] معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشاني، تحقيق وتقديم وتعليق، د: عبد العال شاهين، دار المنار، ط:1، ص: 162.

[10] كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم وعلي دحروج، مكتبة لبنان، ط: 1، 1996م.ج:2، ص: 1372.

[11] المعجم الصوفي، لسعاد الحكيم، دندرة للطباعة والنشر، ط:1، 1401هـ/ 1981م، ص: 911/909.

[12] معجم الكاشاني، ص: 185/المعجم الصوفي لسعاد الحكيم، ص:915.

[13] كشاف الفنون، ص: 1330.

[14] معجم الكاشاني، ص: 89.

[15] كشاف الفنون، ج: 1، ص: 730.

[16] معجم مصطلحات الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني، دار المسيرة بيروت، ط:2، ص: 97.

[17] المعجم الصوفي للحكيم، ص: 419/415.

[18] إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحسني، تحقيق محمد عبد القادر نصار، دار جوامع الكلم-القاهرة، ج:1، 83.

[19] اللمع لأبي نصر السراج الطوسي، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ط: 1380هـ، ص: 422.

[20] معجم اصطلاحات الكاشاني، ص: 346.

[21] الإعلام، ج:1، ص: 339.

[22] الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبي القاسم القشيري، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب-القاهرة، ط: 1409هـ/1989، باب: كرامات الأولياء، ص: 563/ معجم الحفني، ص: 223.

[23] الرسالة القشيرية، ص: 565.

[24] البحر المديد لمحمد بن عجيبة في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: د حسن عباس زكي-القاهرة، ط: 1419هـ/1999م، ج:1، ص: 150.

[25] المعجم الصوفي للحكيم، ص: 962.

[26] معجم الحكيم، ص: 967.

[27] البحر المديد لابن عجيبة، باب: 5، ج:1، ص:7.

[28] السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله بن محمد الشيخ المهدي، واسطة عقد سلاطين السعديين، ولد سنة 956هـ، وتوفي سنة 1012هـ، بويع في ساحة معركة وادي المخازن الشهيرة، اعتبر المؤرخون فترة حكمه من أزهى فترات حكم الدولة السعدية، لكثرة مآثره وفتوحاته. (نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفراني، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، ط:1-الدار البيضاء، ص: 279/146).

[29] لا يضيف صاحب الإعلام شيئا عما ذكره هنا، من أنه شيخ محمد الكامل الذي أخذ عنه صغرى السنوسي. (الإعلام، ج:3، ص: 149).

[30] يدعو الصوفية إلى الاهتداء بالقلب لينير طريق العلم بالفتح، أما العقل والبرهان فيبقيان قاصرين عن الوصول إليها.

[31] مسجد أسسه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي، أول ملوك مراكش. (وصف افريقيا للحسن محمد الوزاني الفاسي، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط:2، ج:1، ص: 127).

[32] من مريدي الزاوية البوعمرية

[33] الرسالة القشيرية، باب: رؤيا القوم، ص:604.

[34] كشاف اصطلاحات الفنون، ج:1، ص:887.

[35] نزيل الجزائر الذي أرسلت دولة الترك في شأن عقد مهادنة مع السلطان أبي عبد الله الشيخ لما كان يريد غزو تلمسان. (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق: جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/1997م، ج:5، ص: 27).

[36] الاستقصا، ج:5، ص:27.

[37] ممتع الأسماع، ص: 20.